

الحياة العقلية في الإمبراطورية العثمانية وفي مصر

في القرن التاسع عشر

للكاتب الألماني (كارل بروكلمان)

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم - ٢ -

التي عبرت عنه الكاتبة «خالدة أميب» أدق تعبير بروايتها «طوران» .

ولم تفوض السكارة التي حلت بالبلاد في أعقاب الحرب بيان هذه النهضة ، بل إن هذه النهضة قد أقيمت بعثاً جديداً قوياً على أيدي الحكومة الوطنية .

وبينا قد أحدث الاتصال بالمدنية الأوروبية في تركيا ذاتها انقلاباً تاماً في الحياة الأدبية . فإن المثل العليا القديمة ظلت باقية دهباً أطول في الممالك العربية ، على الرغم من أن تلك الممالك قد خضعت من قبل للغزو الأوروبي في مكيدة ومنبر ، أكثر مما كادت وصبرت تركيا ، ولم يبدأ انهيار تلك المثل العليا في البلاد العربية إلا تدريجاً ، وذلك في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى .

وقد أعاق اتصال مصر سياسياً عن الإمبراطورية العثمانية ، وهي الإمبراطورية التي ظلت الأمم العربية — ماعداً بلاد شمال إفريقيا — خاضعة لها ، أعاق هذا الاتصال توحيد نهضة الأدب العربي وتقدمه .

وقد قوى هذه الإعاقة فقدان الأهداف القومية التي تجمع بين المسلمين وبين المسيحيين الأكثر نشاطاً واجتهاداً .

وفي سوريا قام المارونيون — وقد كانت غالبيتهم في خدمة الإرساليات المسيحية التي قامت بتأسيس الكتلة الأمريكية في بيروت ، ومنافستها كلية «سان جوزيف» الجزيرية — قاموا بنافس بعضهم بعضاً في إحياء الأدب العربي القديم وإعادة خلقه خالصاً نقياً .

من أجل ذلك كان الأدب التركي في تلك السنين يعتمد على دعابة من الشعر الفرنسي المعاصر ، متخذاً كلمة «الفن» رمزاً له وشعاراً . ولم تمر تلك الفترة غير أحاسيس سداها وطمحها التشاؤم الويل .

وقد انتفح عنب ذلك الأدب حول صحيفة «تروتي قانون» وهي الصحيفة التي نشرت روايتي «خالدة خياء» وهما الأزرق والأسود و«الحب المحرم» . وهما الروايتان اللتان أفلتا — على الرغم من أسلوبهما الذي تنقصه الأسالة — أول الأسس الصحيحة لهذا اللون من الأدب بين الأتراك .

وتبعه في هذا «أحمد حكمت» الذي استرعى انتباه القراء بقصصه القصيرة التي كانت تدور بصفة عامة حول دنيا الجنيات .

وقد فككت ثورة تركيا الفتاة عن الأدب — فور قيامها — أغلال الرقابة وأسودها . ولم يبق على ولاته نال العصر السالف إلا شعراء قليلون ، ومنهم الشاعر الغنائي «أحمد هاشم» .

وقد نافس كتاب الترك العثمانيين في نشر الآراء الجديدة وإذاعتها كتاب من التارفران من روسيا القيصرية . وقد زعم هذه الحركة «ضيا جوك آب» الذي اعتبره الحلفاء مصدر خطر عليهم ، ثم نقوه إلى مالطة بعد احتلال استانبول .

وقد ألجأ هذا الشاعر هموس الشباب بقصائده الرمزية وبمروسة في الجامعة التي أنشئت في سبب الحرب العالمية ، وكذلك بمحاضراته ، وغرس في نفوسهم مثله الوطني الأثني

وكان هذا الإجراء في عمومته ، وكانت تلك الإعادة في مجملها ، من عمل « ناصيف البازجي » (التوفى عام ١٨٧٩ في بيروت) وهو الذي كان في قصائده يهتدى بهدى التنبي . كما كان في مقالاته يقتضي أكثر الحرري .

وقام من يدهى « مارون النقاش » (التوفى في بيروت عام ١٨٧٩) فأقول أن ينشئ ، لقومه « دراما » عربية على غرار الدراما الفرنسية . ولكن محاولته كانت عقبا . ولم يجد من يقفوا آثره .

وقد أعانت رعاية الطبعات التركية نهضة الصحافة في سوريا بنفس الصرامة التي كانت تلاقها صحافة تركيا في « استانبول » . واستنتج هذا أن كثيراً من الصحفيين السوريين السابحين فضلوا أن ينزحوا إلى مصر للإقامة بها . ولا سيما أن السلطات البريطانية كانت قد أتاهات فصحاة قسماً أوفر من الحرية .

أما الأدب العربي في سوريا زمان « عبد الحميد » فقد كان يحتله « النبهاني » الذي كان رئيس المحكمة الشرعية في بيروت . والذي كان صديقاً لأبي المدي إمام السلطان . وقد أبدى « النبهاني » هذا نشاطاً خصباً داغرفي نشر الأدب العربي على الطريقة الإسلامية القديمة ، معارضاً بذلك نفوذ أوروبا للسيحية .

أما في مصر فقد وقف المسلمون أول أمرهم وحدهم كلمة لواء الأدب العربي .

أما القبط فقد دخلوا الميدان بعد الحرب العالمية الأولى ونحت الظروف السياسية الحديثة . وقد أُنشئت عناية « محمد علي » واهتمامه بالحضرة الأوربية كنبأ مترجمة لا يحصرها الحد ؛ فضلاً عن الكتب العلمية والفنية التي كانت مرغوبة في أول الأمر . فإن الروايات الفرنسية للترجمة قد ظهرت بكثرة . وهي روايات ترجمت في الأعم الأغلب دون مراعاة الاختيار .

وقد طالت سيطرت هذه الروايات على ذوق الجماهير . وقد طالت وقت حلالاً دون تلبيح الصناعات القومية . ثم قامت بعدئذ محاولة متفرقة لم تجد من يقفها . وهي ترجمة سليمان البستاني السوري للإيلاده في مقطعات ذات قواف

متخالفة . نشر القاري « بحر لللاحق » . ولكنها لم تستطع أن تنحرف إلى الجمهور العربي إلا قليلاً .

أما في الشعر فقد انتشر تقليد زعماء الأدب في عهد النباشين . وذلك على لسان وزير الحرية « سامي البارودي » الذي شاء البريطانيون إلى جزيرة سيلان بعد الثورة العراقية . والذي لم يستطع العودة إلى وطنه إلا وقد أدركته الشيخوخة ، وقد بث أحزانه — وهو في منفاه — في قصائد مؤثرة ذات أصالة .

وينسب « محمود سامي » إلى أصل تركي . وكذلك كان يحرقى الدم الأجنبي مستزجاً بالدم العربي في عروض خاص البلاط الحديثي وأحمد شوقي « الذي كثر من كثر طائفة كتبها إلى ميده أثناء الحرب العظمى بأن شاء الإنجليز إلى إسبانيا . وقد كان « أحمد شوقي » في أدبه لا يجيد قيد أنملة عن الأعاط القديمة . ولم يتخذ لأدبه مسالك جديدة إلا في الفترة التي أعقبت الحرب .

أما في النثر القصصي فقد سيطر جورجي زيدان السوري على الوقت برواياته التاريخية المعديدة التي تحدث فيها عن الماضي الإسلامي . وذلك الروايات ، وإن تكن ليست عميقة الغور ، فقد ملكت عقول قرائها بما فيها من بيانات مصورية في أسلوب سهل . وبذلك مهد الطريق لازدهار هذا النوع من الأدب في فترة ما بعد الحرب .

وقد حاول « زيدان » بعد ذلك أن يجعل قراء العربية يألون النتائج التي وصلت إليها بحوث الأوربيين في التاريخ والاجتماع .

وفي مصر كانت الدراما تفتى في تقدمها مشياً وقيماً ؛ وذلك لفقدان المحتاج التي يمكن احتساؤها .

وعلى الرغم من الجوسود التي بذلت لتصير التراجيديات الكلاسيكية الفرنسية ، فإن النجاح الحقيقي لم تظهر به إلا الروايات الفرنسية الحظيفة .

وقد رجع عنان جلال (١٨٢٩ — ١٨٩٨) إلى كوميديات « مولير » على أمل أن يجعل تلك الكوميديات مستقلة لدى قومه . وذلك بتطبيق ما جاء بها على البيئة المصرية تطبيقاً عولج بهلرة . وقد لجأ هو إلى التجديد الجريء باستعمال اللهجة الشعبية بدلاً من اللغة الكلاسيكية

التي لا تزال تسيطر على المسرح سيطرة تامة . ولكنه لم يظهر إلا القليل من النجاح . حتى إن رواياته لم تحتل إلا عام ١٩١٢ ولم تلبث أن اختفت من المسرح مرة أخرى .

وقد ظهر في صحافة مصر الفتية في مادتها أسلوبه الجديد من النشر استعان به ميسير مصر الدين قهروا إبان الحكم البريطاني كوسيلة ناجحة من وسائل دعائهم .

ونذكر من بين هؤلاء : « قاسم أمين » (التوفى سنة ١٩٠٨) وهو الذي أنكر كتابه « تحرير المرأة » (١٨٩٩) و « المرأة الجديدة » (١٩٠١) موضوع البحث في مسائل المرأة في سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وحدث حديث أن سارث تركيا قديماً بحلولها العملية في مسألة المرأة . ونجىها في ذلك قوم مصر — بعد تردد في أول الأمر — ولكن سرعان ما بلغ النجاح الذي .

ومع ذلك فالحياة الدينية في مصر كانت ولا تزال تسيطر عليها الإسلام . وهذا يرجع بصفة خاصة إلى تقوى رجال فارسي اسمه « جمال الدين » الذي فصل — لأشياء سياسية — أن يسمى نفسه الأنفاس نسبة إلى البلاد التي قضى شبابه فيها .

وفي عام ١٨٧٠ عند ما كان حياً عليه أن يخاطر وطه المختار بعد موت صغيره وحاميه « الأمير دست محمد » ذهب « جمال الدين » أول أمره إلى استانبول . وهناك تلقى الحكومة ودوائر الأدب بقبول حسن . إذ كان قد سبقه صيته كأديب ذي شأن . ولو أنه لم يؤلف أي كتاب .

وقد تأثرت دوائر الأدب تأثراً بالغاً بما ألقاه من خطب ومحاضرات في الجامعة التي كانت قد أنشئت حديثاً .

وفي الرغم من ذلك فقد نجح شيخ الإسلام في اتهام بحرية الفكر ثم في تقيده من البلاد . فدخل يومئذ إلى القاهرة حيث لقي صندوراً رعية . وفي القاهرة استطاع أن يعمل حراً — دون أن يكون له اتصال بالرجال الرعيين — حتى قامت الثورة المصرية . وقد بحث في الشباب المصري الأمل في إمكان التحرر من السيادة الأوروبية . وذلك إذا أشرقت غفولهم ثقافة الغرب وعلمونه . وذلك بقصد الدفاع عن الإسلام كدين غير ربي .

وقد نرى « جمال الدين » إلى الهند بعد الاحتلال البريطاني . ولكنه استطاع عام ١٨٨٢ أن يذهب إلى باريس حيث أصدر هو وتلميذه « محمد عبده » صحيفة « الحرة الوثني » الأسبوعية . وكانت صحيفة قوية النفوذ على الرغم من عمرها القصير .

وفي عام ١٨٨٥ عاد تلميذه « محمد عبده » إلى بيروت أولاً . ثم في عام ١٨٨٨ إلى وطنه مصر حيث استقبله قومه وهم بحبوة تحية رسول جاء لتحريرهم . وبدأ حياته الرسمية كقاض في المحاكم الوطنية . ثم عين مفتياً لاديار المصرية عام ١٨٩٩ . وعمل إلى حين وفاته (في الحادي عشر من يوليو عام ١٩٠٥) مفتياً بإصلاح القوانين . كما عمل عاكفاً على إلقاء الدروس في الخدمة الأزهرية الوفرة . والشيخ محمد عبده هو موجد الحركة الحديثة في الإسلام . والقصد منها الرجوع إلى آراء صاحب الشريعة . وإظهار ما بنى تلك الآراء من عناصر البقاء .

ولا تزال آراء الشيخ مهيمنة على الحياة الدينية في مصر إلى يومنا هذا ...

(من الإنجليزية) مبارك إبراهيم

مصلحة البلديات

مبارة

تقبل المطامير بمجلس الأنصر البلدى
حتى ظهر يوم ٣٠ / ٤ / ١٩٥١ عت
مجلسية نوريه أدوات كهربائية (أمحمد
وكابلات وخلافه) .

وانطلب الشروط والواصفات من المجلس
على ورقة نسخة قدة التسلتين مليحاً
مقابل دفع مبلغ ٥٠٠ ملسم
خلاف أجره البريد . وكل عسطة
غير مصحوب بشأمين إبتدائي فقرة
٢ / ٪ لا يلتفت إليه . ١٧٦٥